أسرار البلاغة

في

وضع الظاهر موضع المضمر

في الآيات القرآنية

د/ محمد حمدى على عبد العاطى

الأسرار البلاغية
فى وضع الظاهر موضع المضمر فى الآيات القرآنية

نحن نعلم أن الإيجاز من أهم السمات البلاغية التى ينشدها علماء البلاغة ، حتى قالوا إن البلاغة هى الإيجاز .

وقد أشاد بذلك كل من الامام الرمانى (١) ، وأبى هلال العسكرى (٢) ، وابن رشيق القيروانى (٣) ، والإمام عبد القاهر الجرجانى (٤) ، والامام الفخر الرازى (٥) ، والخطيب القزوينى (٦) ، وغير هؤلاء كثير ، من الذين أشادوا بهذا الضرب من ضروب الكلام .

ولكن فى بعض الأحيان قد لا يلتفت إليه فى بليغ الكلام وأعلاه ، وذلك عندما نجد أن فى كتاب الله تعالى: «وضعا للظاهر موضع المضمر» ، وفى هذا تعارض مع أساليب الإيجاز التى نتحدث عنها ، حيث أن الأصل فى الأسماء أن تكون ظاهرة غير مضمرة ، لكن إذا ما أعيد هذا الظاهر بعينه ، وفى جملته . فالأصل فيه أن يذكر مضمراً ، استغناء به عن الظاهر لسبقه فى الكلام ، وذلك من باب الاختصار والإيجاز .

---

(١) النكت ص٧٠ .

(٢) الصناعتين ص ١١٩ .

(٣) العمدة ١/٢٥٠ .

(٤) دلائل الإعجاز ص ١٢٥ .

(٥) نهاية الايجاز ص ١٧٣ .

(٦) الإيضاح : ص ١٠٥ .

هذا إذا لم يطل الكلام بين الظاهر والمضمر ، فإن طال حسن إيقاع الظاهر موقع المضمر ، حتى لا يظل الفكر مشغولا به ، فيفوت المعنى الذى شرع من أجله الكلام .

مثال ذلك قوله تعالى (٢) : « قل أأنتم أعلم أم الله ؟» (١) ، وذلك بعد قوله تعالى (٢) : «قل أتحاجوننا فى الله وهو ربنا وربكم» (٣) .

وكذلك يسهل التعبير بالظاهر بدل المضمر عند اختلاف اللفظين ، كما فى قوله تعالى : «ومنهم الذين يؤذون النبى ..» (٤) ، ثم قال بعدها : «والذين يؤذون رسول الله ...» (٥) ، فعبر بالظاهر ، وهو : «رسول الله» ، دون المضمر : (يؤذونه) ، وذلك لإعادة الاسم بلفظ مغاير لما ذكر أولا .

وكما فى قوله تعالى : «الذين آمنوا يقاتلون فى سبيل الله والذين كفروا يقاتلون فى سبيل الطاغوت فقاتلوا أولياء الشيطان ..(٦)» ، والذى سوغ إقامة الظاهر مقام المضمر هنا ، هو إفادة أن الطاغوت هو الشيطان، ولأجل هذه الإفادة جاء الكلام مخالفًا للقاعدة .

ومن هذا القبيل قوله تعالى : «وإذا جاءتهم آية قالوا لن نؤمن حتى نؤتى مثل ما أوتى رسل الله الله أعلم حيث يجعل رسالته» (٧) ، فلفظ(رسالته) جيء به ظاهرًا ، لحمله على رسالة جبريل عليه السلام ،

---

(١) البقرة : ى/١٤٠ .

(٢) البقرة : ى/١٣٩ .

(٣) ينظر : النكت فى إعجاز القرآن ص ٧٠ ، وفن البلاغة ص ٢٧٦ ، وبغية الإيضاح ١٤٨/١ .

(٤) التوبة : ى/ ٦١ .

(٥) التوبة : ى/ ٦٢ .

(٦) النساء : ى/ ٧٦ .

(٧) الأنعام : ى/ ١٢٤ .

والمراد بجعلها : تبليغها إلى المرسل إليه فلما اختلف اللفظان ، لزم الإظهار فى الثانى .

ومما يسهل فيه الأمر فى التعبير بالظاهر بدل المضمر إذا تكرر اللفظ فى جمل مستقلة ، ليس بينهما ارتباط ، ويتمثل هذا فى قوله سبحانه : ﴿ما ننسخ من آية أو ننسها نأت بخير منها أو مثلها ، ألم تعلم أن الله على كل شىء قدير ألم تعلم أن الله له ملك السموات والأرض وما لكم من دون الله من ولى ولا نصير﴾ (١) .

ففى هاتين الآيتين ، تكرر اسم الله - تعالى - ثلاث مرات وعبر عنه بالاسم الظاهر فى المواضع الثلاثة ، وذلك لكونه مستقلا فى كل موضع عن الآخر ، ولا ارتباط بينهما يلزم الإضمار هذا بالإضافة إلى أن فى إعادة لفظ الجلالة اسماً ظاهراً تربية للمهابة فى قلوب السامعين ، فهو الاسم العلم الجامع لكل الصفات ، وهو أبلغ فى نسبة القدرة إليه ، من مجيئه مضمراً (٢) .

ومن المواضع التى يحسن فيها التعبير بالإسم الظاهر بدل الاسم المضمر : إذا اقترن بالثانى حرف استفهام ، يفيد التعظيم والتفخيم والتعجب ، كما هو الشأن فى قوله تعالى : ﴿الحاقة ما الحاقة﴾ (٣) ، وقوله تعالى : ﴿القارعة ماالقارعة﴾ (٤) ، حيث إن الأصل : الحاقة ماهى ؟، والقارعة ماهى ؟ ، أى : أى شىء هى فى حالها وصفتها ، فخولف تعظيماً ، وتهويلا لشأن القيامة . ويشير أبو يعقوب المغربى إلى صحة أن

---

(١) البقرة : ى/١٠٦ ، ١٠٧ .

(٢) ينظر : شروح التلخيص ٤٦٠/١ .

(٣) الحاقة : ى/٢ .

(٤) القارعة : ى/١ .

يكون إعادة الظاهر فى هذا الباب بغير لفظ الأول ، ومثل له بقول الله سبحانه : «ما يود الذين كفروا من أهل الكتاب ولا المشركين أن ينزل عليكم من خير من ربكم والله يختص برحمته من يشاء» (١) ، فيقول معقباً على هذه الآية : «لأن إنزال الخير مناسب للربوبية ، وإعاده بلفظ الله ، لأن تخصيص الناس بالخير دون غيرهم مناسب للالهية» (٢) .

وينبه الإمام أبو يعقوب المغربى إلى أهمية المقام فى هذا الموضوع ، مشيراً إلى أن المعنى والسياق يتحكمان فى جعل الكلام من قبيل الظاهر ، أو المضمر ، يظهر لنا هذا جلياً عند تعرضه لقوله تعالى : «إنا مهلكوا أهل هذه القرية إن أهلها كانوا ظالمين» (٣) ، يقول أبو يعقوب : «ووضع الظاهر موضع المضمر إنما يحتاج للاعتذار عنه ، إذا كان فى جملة واحدة ، ولكن سئل عن سبب الإظهار هنا ، والإضمار فى مثل قوله تعالى : «إلى فرعون وملئه إنهم كانوا قوماً فاسقين» (٤) ،وخطر لى الجواب : أنه لما كان المراد من مدائن لوط إهلاك القرى ، صرح فى الموضعين بذكر القرية يحل بها الهلاك ، كأنها اكتسبت الظلم منهم ، واستحقت الإهلاك معهم ، ولما كان المراد من قوم فرعون إهلاكه بصفاتهم حيث كانوا ، ولم يهلك بلدهم ، أتى بالضمير العائد على ذواتهم من حيث هى ، لاتختص بمكان ، ولا يدخل فيها مكان (٥) .

مما تقدم تبين لنا أن الأصل فى الأسم المعاد بلفظه ، وفى جملته، وله تعلق بسابقه ، أن يكون مضمراً ، لعوده على الاسم الظاهر قبله ، وذلك اختصاراً فى الكلام وبعداً عن الركاكة فى الأسلوب .

---

(١) البقرة : ى/ ١٠٥ .

(٢) مواهب الفتاح ،ضمن شروح التلخيص ٤٦٠/١ .

(٣) العنكبوت : ى/ ٣١ .

(٤) هود : ى/ ٩٧ .

(٥) مواهب الفتاح ،ضمن شروح التلخيص ٤٦٠/١ .

ولا يخالف فى هذا الأصل ، ويوضع المظهر موضع المضمر ، إلا إذا كانت هذه المخالفة ، وهذا الخروج عن الظاهر ، لأسرار بلاغية ، وأغراض بيانية ، تكون من وراء هذه المخالفة ، فتصبح مسوغًا لوضع الظاهر موضع المضمر .

هذا فضلا على أن وضع الظاهر موضع المضمر وإن خلا من فضيلة الإيجاز ، فإن للاطناب فيه مقاماته البلاغية التى لا تنكر ، وذلك طالما جاء الكلام مطابقًا لمقتضى الحال ، ولذا تجدر الإشارة إلى أن هذه الأغراض البلاغية - التى سوف نعددها - والمستفادة من وضع الظاهر موضع المضمر ، تعنى أول ماتعنى : مطابقة الكلام لمقتضى الحال ، فالمطابقة هى التى أوجبت أن يكون الكلام على هذه الصورة ، وعلى هذا الوضع الذى حل فيه الاسم الظاهر محل المضمر ، ولو خولف وجاء الكلام على ظاهره ، لفاتت تلك المطابقة ، وبالتالى تفوت بلاغة الكلام ، ويصير بمعزل عنها .

وإن المتتبع لألفاظ القرآن الكريم ، يجد أن كثيرًا من آياته قد خرج فيها الكلام عن مقتضى ظاهره ، بسبب حلول الاسم الظاهر محل الاسم المضمر ، ولا يكون هذا الخروج من باب السرد للكلام ، دون أن يتعلق ذلك بغرض بلاغى ، فحاشا كتاب الله عن ذلك ، وعلا علوًا كبيرًا .

لكن طالما وجدت هذه المخالفه فى كتاب الله عز وجل فلابد أن تكون لأسباب بلاغية قد اقتضاها المقام ، وحتم عليها السياق ، وأوجبتها المناسبة التى سيق فيها هذا الأسلوب .

فإلى النصوص القرآنية الكريمة نستعرض الآيات التى وضع فيها الظاهر موضع المضمر ، لنقف على بلاغة القرآن الكريم ، وقوة الإعجاز البيانى فيه ، وهذه هى أهم الأغراض البلاغية التى استفيدت من وضع الظاهر موضع المضمر ، فيما يأتى من نصوص قرآنية :

الأغراض البلاغية لوضع الظاهر موضع المضمر في النصوص القرآنية

الغرض الأول

التعظيم والتفخيم والتبجيل :

ويتمثل هذا الغرض فى كثير من الآيات القرآنية الكريمة التى احتوت على أسماء ذات قدر عظيم ، وذلك كأسماء الله الحسنى ، وأسماء رسله ، وأنبيائه ، وملائكته وفيما يأتى أمثلة للنصوص القرآنية التى وضع فيها الظاهر موضع المضمر لغرض التعظيم والتفخيم :

(١)

قوله تعالى : «واتقوا الله ويعلمكم الله والله بكل شىء عليم» (١) ؛ ففى هذه الآية كرر لفظ الجلالة (الله) ثلاث مرات ، دون إضمار ، فوقع لفظ الجلالة : (الثانى، والثالث) اسمًا ظاهرًا ، موقع الاسم المضمر، وهذا لا كراهة فيه، ولا مخالفة ، وذلك لأن التكرير للاسم الظاهر منه المستحسن ومنه المستقبح ؛ فالمستحسن كما فى هذه الآية ، وهو كل تكرير يقع على طريق التعظيم ، خاصة لو كان فى جمل متواليات ، كل جملة فيها مستقلة عن الأخرى ، قائمة بنفسها ، وهذا هو ما عليه الآية، حيث أن لفظ الجلالة : (الله) جاء أولا فى سياق الحث على تقوى الله ، وجاء ثانيًا فى معرض الإنعام على عباده ، وجاء ثالثًا فى سياق التعظيم

---

(١) البقرة : ى/٢٨٢ .

لذاته ، لأنه وحده الذى اختص بعلم الغيب فلا يعلمه إلا هـــو ، وهذا هو السر فى ختم الآية بما ختمت به ، لما فيه من تحذير وتخويف للمخالف (١) .

(٢)

وقوله تعالى : «أولئك حزب الله ألا إن حزب الله هم المفلحون» (٢) ، وكان الظاهر : {ألا إن حزبه} ، لكن لما كانت الآيات فى موالاة أولياء الله ، وإن كانوا أعداء ، وفى معاداة أعدائه ، ولو كانوا آباء ، أو أبناء ، فحزب الله جدير بالمحبة ، والقربى ، والمودة ، فلكون المقام مقام تعظيم ، وتبجيل ، وفخر بحزب الله ، أعيد لفظ الجلالة ظاهراً من باب التعظيم والتفخيم لهذا الحزب الذى شرف وعظم بانتسابه لرب العزة ، عز وجل (٣) .

وهناك الكثير من النصوص القرآنية الكريمة المشتملة على هذا الغرض ، والتى فيها على سبيل الاجمال ، قوله تعالى :

«ياأيها الذين آمنوا اتقوا الله ولتنظر نفس ماقدمت لغد واتقوا الله إن الله خبير بما تعملون(٤)» .

«فستذكرون ما أقول لكم وأفوض أمرى إلى الله إن الله بصير بالعباد» (٥) .

«لكن هو الله ربى ولا أشرك بربى أحدا» (٦) .

---

(١) ينظر : الكشاف ٣٢٤/١ ، والشروح ٤٥٢/١ ، والمطول ص ١٢٧، وروح المعانى ٥٥/٣ ، والاتقان ٢١٦/٣ .

(٢) المجادلة : ى ٢٢/ .

(٣) الاتفاق ٢١٦/٣ ، الكشاف ٤٩٥/٤ ، والروح المعانى ٣٢/٢٧ .

(٤) الحشر : ى ١٨/ .

(٥) غافر : ى ٤٤/ .

(٦) الكهف : ى ٣٨/ .

«أقم الصلاة لدلوك الشمس إلى غسق الليل وقرآن الفجر إن قرآن الفجر كان مشهودا» (١) .

«بل كذبوا بالساعة واعتدنا لمن كذب بالساعة سعيرا» (٢) .

وهناك الكثير من الآيات القرآنية الكريمة التى أقيم فيها الظاهر مقام المضمر لغرض بلاغى هو التعظيم والتنويه بشأن هذا الاسم (٣)

---

(١) الإسراء : ٨٧/ .

(٢) الفرقان : ١١/ى .

(٣) ينظر روح المعانى ٦٠/٢٨ ، ٧٢/٢٤ ، ٢٧٦/١٥ ، ١٣١ ، ٢٤١/١٨
والكشاف: ٨/٤ ، ٧٢٣/٢٥٠ ، ١٩٦/٤ ، ٦٨٦/٢ ، ٢٦٦/٣.
والشروح ٤٥٢/١ ، والبرهان ٤٨٢/٢ ، والإتقان ٢١٦/٣ .

الغرض الثاني

التحقير والإهانة والاستهزاء :

من الأغراض البلاغية المستفادة من خروج الكلام على خلاف مقتضى الظاهر ، ويتحقق هذا الغرض فيما يأتى من نصوص قرآنية كريمة :

(١)

قوله تعالى : «يا أيها الذين آمنوا لاتتبعوا خطوات الشيطان ومن يتبع خطوات الشيطان فإنه يأمر بالفحشاء والمنكر ....» (١) .

ففى هذه الآية خروج عن مقتضى الظاهر ، حيث عبر القرآن بلفظى : الخطوات ، والشيطان وكررهما ، ولو جاء الكلام على ظاهره ، لقال : (ومن يتبعهما) بإضمار الإسمين ، أو قال : (ومن يتبع خطواته) بإضمار الثانى فقط .

ولكن خولف فى الظاهر لزيادة التقرير والمبالغة فى التحقير والإهانة من شأن هذا اللعين الذى يجرى من ابن آدم مجرى الدم من العروق، وهذا هو السر البلاغى فى إقامة الظاهر مقام الضمير فى هذه الآية الكريمة (٢).

---

(١) النور : ى/ ٢١ .

(٢) ينظر : البرهان ٢/ ٤٨٢، والمطول ص ١٢٧ ، والكشاف ٣/ ١٢١ ، وروح المعانى ١٨/ ١٢٣ .

(٢)

ومما جاء من هذا القبيل : قوله تعالى :

﴿وقل لعبادى يقول التى هى أحسن إن الشيطان ينزغ بينهم إن الشيطان كان للإنسان عدواً مبينا﴾(١).

ففى هذه الآية الكريمة أمر من الله لرسوله بالقول لمن يستحقون شرف العبودية إلى الله عز وجل ، أن يقولوا عند محاورتهم للمشركين قولا لينا ، من باب قوله تعالى ﴿ولاتجادلوا أهل الكتاب إلا بالتى هى أحسن﴾(٢) ، دون مخاشنة فى القول ، مخافة أن يوقع الشيطان بينهما ، لأنه شديد العداوة لبنى الإنسان منذ القدم.

وجاء أسلوب الآية مخالفاً لمقتضى الظاهر ، لأن لفظ (الشيطان) كرر فيها مرتين ، فكان الظاهر أن يأتى فى المرة الثانية ضميراً ، ويكون التقدير (إنه عدو مبين) ، ولكن خولف فيه لسر بلاغى قد اقتضى وضع الظاهر موضع المضمر ، هو : التحقير والإهانة والحط من شأن الشيطان كى يبتعد عنه الناس ، وينفروا من متابعته ، والاستسلام لوسوسته ، وإنما يكونون أقوياء - دائماً - أمامه ، يطردونه بذكر الله ، وتسبيحه ، وتلاوة القرآن ، فيصبحون وليس للشيطان عليهم من ولاية أو سبيل(٣).

(٣)

ومنه قوله تعالى : ﴿وقال فرعون يا هامان ابنى لى صرحاً لعلى أبلغ الأسباب . أسباب السماوات فأطلع إلى إله موسى وانى لأظنه كاذباً

---

(١) الإسراء : ي/٥٣ .

(٢)

(٣) ينظر: الكشاف ٦٧٢/٢ ، وروح المعانى ٩٤/١٥ ، والبرهان ٤٨٢/٢ ٤٨٢/٢ .

وكذلك زين لفرعون سوء عمله وصد عن السبيل وما كيد فرعون إلا فى تباب﴾(١) .

فى الآية الكريمة يطلعنا الحق سبحانه وتعالى على تفاهة عقل فرعون فى إرادته الوصول إلى الله عن طريق الصرح الذى يقيمه هامان ، ثم يعود فيكذب موسى فى إخباره عن ربه فيقول الله على لسانه: ﴿وإنى لأظنه كاذبا﴾ . ولم توجد تفاهة للعقل أكثر من تزيين السوء ،وتحسين القبيح، فهذه منزلة لو وصل إليها الإنسان ، لصار أحقر من الحيوان ، وهذا هو حال فرعون مع موسى .

فأراد الله تعالى أن يضاعف من هذا التحقير ، ويؤكده ، فأتى بالكلام مخالفًا لمقتضى الظاهر ، وذلك عندما أعاد لفظ (فرعون) اسمًا ظاهرًا ، ولم يقل : (وما كيده) ، وكان هذا هو السر البلاغى الذى بسببه وضع الظاهر موضع المضمر (٢) .

ومما هو من هذا القبيل قوله تعالى: ﴿استحوز عليه الشيطان فأنساهم ذكر الله أولئك حزب الشيطان ألا إن حزب الشيطان هم الخاسرون﴾(٣) .

فلفظ (الشيطان) كرر ثلاثة مرات ، فكان الظاهر أن يذكر فى المرة الثانية والثالثة اسمًا مضمرًا ، لتقدم ذكره ، ولكن خولف فيه ، ووضع الظاهر موضع المضمر للتقرير ، والتأكيد ، والمبالغة فى تحقير الشيطان، وانحطاط شأنه زيادة فى التنفير ، والتحذير ، وهذا ما ترشد إليه خاتمة الآية ﴿ألا إن حزب الشيطان هم الخاسرون﴾ ، حيث جاء التأكيد من مجموعة

---

(١) غافر : ٣٦ ـ ٣٧ .

(٢) ينظر : المطول ص١٢٧ ، والشروح ٤٥٢/١ ، والكشاف ١٩٤/٤ ، وروح المعانى ٧/٢٤ ، ومختصر السعد ٣٠/١ .

(٢) المجادلة : ى/١٩ .

أشياء (ألا) الاستفتاحية التى تنبه الذهن لما يأتى بعدها ، و(إن) التى تفيد تأكيد مضمون الكلام الداخلة عليه ، و(اسمية الجملة) ، و(إقامة الظاهر مقام المضمر) فى قوله (حزب الشيطان ، ألا إن حزب الشيطان) ، و(الضمير المنفصل) المفيد للاختصاص : (هم الخاسرون) ، ففيه قصر الخسران عليه دون غيرهم ، و(تعريف الخبر) بـ(أل) المفيدة للاستغراق . فما أعظم بلاغة القرآن ، وأسراره البلاغية (١).

---

(١) ينظر : الشروح ٤٥٢/١ ، والمطول ص ١٢٧ ، والاتقان ٢٦٦/٢ ، والكشاف ٤٩٥/٤ ، وروح المعانى ٣٣/٢٧ .

الغرض الثالث

الاستلذاذ بذكره

من الأغراض البلاغية التى تستفاد من إقامة الاسم الظاهر مقام المضمر التلذذ بذكر الاسم ظاهراً ، واستحباب جريانه على اللسان ، إسعاد النفس بذلك ، ويتمثل هذا الغرض فى آيات كثيرة من آيات القرآن الكريم ، نذكر منها :

(١)

قوله تعالى : ﴿وبالحق أنزلناه وبالحق نزل وما أرسلناك إلا مبشراً ونذيراً﴾ (١) ، ففى هذه الآية حديث عن القرآن الكريم الذى هو دستور المسلمين ، والمعجزة الدائمة لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، والكتاب السماوى الخالد الذى سيظل دستوراً للمسلمين إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها ، وأن الله سبحانه أنزله متلبساً بالحق المقتضى لإنزاله، أى ما أنزله من السماء إلا محفوظاً بالرصد من الملائكة ، وما نزل على الرسول إلا محفوظاً بهم من تخليط الشياطين ، فهو محفوظ حال الإنزال وحال النزول ، وما بعدهما ، فلا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه .

وفى خاتمة الآية يقصر الله سبحانه وتعالى مهمة رسوله صلى الله عليه وسلم على التبشير بالجنة لمن أطاع ، والتحذير والإنذار لمن ابتعد عن أحكامه ، ولم يلتزم بأوامره ، ويجتنب نواهيه .

---

(١) الإسراء : ى/ ١٠٥ .

وأما الخروج عن الظاهر فى هذه الآية فموطنه (وبالحق نزل) فكان الظاهر أن يقال : (وبه نزل) ، لسبق اللفظ الذى يرجع إليه الضمير ، ولكن عدل عنه لنكتة بلاغية كانت سببًا فى العدول وهى التلذذ بذكر كلمة الحق ، واستحباب جريانها على اللسان مرة بعد مرة ، ولأجل هذا وضع الظاهر موضع المضمر ، لأن للحق حلاوة يجدها الناطق (١) .

وفى تجريد البنانى : تكون الآية السابقة من قبيل وضع الظاهر موضع المضمر شريطة أن يفسر الحق الثانى بما فسر به الأول (٢) .

وأما فى شروح التلخيص فذكر أن السر البلاغى لوضع الظاهر موضع المضمر فى هذه الآية هو زيادة التمكين ، وهذا لا تعارض فيه ، لأن النكات البلاغية - خاصة فى كتاب الله تعالى - يزاحم بعضها بعضًا ، ولذا كان رأى البعض فى الإعجاز القرآنى هو بلاغته وفصاحته ، لدرجة لا يصل إليها كلام البشر (٣) .

(٢)

وقوله تعالى : ﴿من كان يريد العزة فلله العزة جميعًا﴾ (٤) . ففى هذه الآية الكريمة يخبر الحق عز وجل بأن من أراد الشرف والمنعة فليطلب ذلك من الله سبحانه وتعالى وحده ، لا من غيره ، حيث إن الغلبة لله ، ولا تتم إلا من قبله ، ودليل ذلك المعارك الإسلامية وغزوات رسول الله صلى الله عليه وسلم التى قام بها ، رأينا فيها كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله .

---

(١) ينظر : روح المعانى ١٨٧/١٥ ، والكشاف ٦٩٨/٢ .
(٢) ينظر : مختصر السعد : ٣٠١/١ .
(٣) الشروح : ٤٥٧/١ .
(٤) فاطر : من ١٠ .

وقد عبر بالظاهر فى قوله (فإن العزة) ، وذلك بدل (فإنها لله) ، والسر البلاغى الكامن وراء هذا العدول هو التلذذ بذكر لفظ العزة ، والاسترواح بها ، وإسعاد النفس بعودها على اللسان ، لإدخال الفرحة والسرور على نفس قائلها ، فهذه المخالفة كانت لهذا السر البلاغى (١) .

(٣)

ومن هذا القبيل قوله تعالى : «وسيق الذين اتقوا ربهم إلى الجنة زمرا» - إلى قوله - : «وقالوا الحمد لله الذى صدقنا وعده وأورثنا الأرض نتبوأ من الجنة حيث نشاء فنعم أجر العاملين» (٢) .

ففى هاتين الآيتين حديث عن سوق المتقين إلى جنات النعيم المقيم فتفتح لهم أبوابها ، وتسلم عليهم ملائكتها ، ترحب بهم وتبشرهم بطيب المقام ، والخلود الدائم فى دار السلام ، عندها يحمد المتقون ربهم على هذا الجزاء العظيم ، فقد صدقهم الله وعده ، وجعل لهم الجنة ميراثا قد استوجبوه بما قدموا من صالح الأعمال .

وفى هذه الآية الكريمة تعبير بالظاهر فى قوله : (نتبوأ من الجنة) بدل المضمر : (نتبوأ منها) ، وسر هذا العدول هو التلذذ بذكر اسم الجنة ظاهرا ، إسعادا للنفس ، وابتهاجا بتكراره على اللسان ، ففيها ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر ، وكان هذا هو السر البلاغى فى مخالفة الظاهر (٣) .

---

(١) البرهان : ٢/١٨٢ .

(٢) الزمر : ٧٣/ ، ٧٤ .

(٣) ينظر : الإتقان ٣/٢١٦ ، والمطول ص ١٢٧ ، وشروح التلخيص ١/٤٥٢ ، والكشاف ٤/١٤٦ ، وروح المعانى ٢٤/٣٢ - ٣٥ .

الغـــرض الرابـــع
زيـــادة التمكين فى النفـــس

ويتمثل هذا الغرض فى هذه النصوص القرآنية الكريمة :-

(١)

قوله تعالى : «وإن منهم لفريقًا يلوون ألسنتهم بالكتاب لتحسبوه من الكتاب وما هو من الكتاب . ويقولون هو من عند الله وما هو من عند الله ويقولون على الله وهم يعملون» (١) .

لقد كشفت هذه الآية الكريمة جرائم بعض من أهل الكتاب ، الذين يبدلون ، ويحرفون ، ويغيرون ما أنزل الله ، ويقولون هو من الكتاب وما هو من الكتاب ، وفى نهاية الآية يسجل عليهم الحق عز وجل ، كذبهم وافتراءهم عليه ، وهم يعلمون أنه كذب وبهتان .

فالآية مسوقة لبيان منزلة الكتاب الكريم ، وبيان أنه بلغ الغاية القصوى فى الكمال والجلال وعظم القدر . لأنه كلام ذو قدر من رب ذى قدر نزل به ملك ذو قدر ، على رسول ذى قدر ، فى ليلة ذات قدر .

ولما كانت الآية مسوقة لبيان قدر المنزل ، والمنزل ، وضع الظاهر موضع المضمر ، فى موضعين منها : الأول : {وما هو من الكتاب} يدل المضمر : {وما هو منه} . والثانى : {وما هو من عند الله} بدل : {وما هو من عنده} ، وكان السر البلاغى الكامن وراء هذه المخالفة هو : {زيادة التمكين والتقدير} فى نفس المخاطب ، وإشعاره بهذه المنزلة التى قد ارتقى إليها هذا الظاهر ، وبيان أنه ليس بالشىء العادى ، ومن هنا جاء التعبير بالظاهر بدل المضمر (٢) .

---

(١) آل عمران : ٧٨/ى .

(٢) بغية الإيضاح : ١٤٨/١ ، وتجريد البنانى على مختصر السعد : ٣٠١/١ ، وروح =

(٢)

ومنه قوله تعالى : «قل هو الله أحد . الله الصمد» (١) ، فلو بحثنا عن سبب النزول لاستبان لنا العدول ، فقد روى عن ابن عباس أن عامر بن الطفيل ، وأربد بن ربيعة ، أتيا النبى صلى الله عليه وسلم ، فقال عامر : إلام تدعونا يا محمد ؟ ، فقال : إلى الله قال : صفه لنا : أمن ذهب هو ؟ ، أم من فضة ؟ ، أم من حديد ؟ ، أم من خشب ؟ ، فنزلت هذه السورة فأهلك الله تعالى أربد بالصاعقة ، وعامرا بالطاعون .

فجاء الرد عليهم فى هذه السورة : بأن الله واحد لا شريك له ، وهو الصمد : أى السيد الذى كمل فى سؤدده ، والشريف الذى قد كمل فى شرفه ، والعظيم الذى قد كمل فى عظمته، والحليم الذى قد كمل فى حلمه، والعليم الذى قد كمل فى علمه ، والحكيم الذى قد كمل فى حكمته .

وعبر بالظاهر فى هذه السورة (الله الصمد) بدل الضمير : (هو الصمد) حيث كان المقام له لتقدم الظاهر ، ولكن عدل عن الظاهر لبيان عظمة الله سبحانه وتعالى ، وسمو شأنه ، وأنه الجدير بكل كمال يليق بذاته ، والمنزه عن كل نقص ، كى يتمكن ذلك فى نفس المخاطب ، ويقف على حقيقة الأمر ، وتلك هى بلاغة القرآن التى لا تضارع ، ولا تصل إليها بلاغة بشر (٢) .

وللإمام (البنانى) صاحب التجريد رأى فى هذه الآية الكريمة فيقول: (يحتمل أن تكون الإضافة فيه للبيان ، أى لزيادة التمكين ، أى جعل

= المعانى : ٢٠٤/٣ ، والكشاف : ٣٧٦/١ ، وشروح التلخيص : ١٤٨/١ ، ٤٥٧ .

(١) الإخلاص : ى/٢٠١ .

(٢) البرهان : ٤٨٢/٢ ، وروح المعانى : ٣٤٠/٣٠ .

المسند إليه متمكنا فى ذهن السامع ، ويحتمل أن تكون على أصلها ، لأن المضمر لا يخلو من تمكن معناه فى ذهن السامع فى الجملة ،والمظهر أقوى فى (التمكين ، وعلى الأول يكون تسمية التمكين زيادة ، لأن المسند إليه فى الجملة يفيد فهم معناه ، وكونه مظهرا فى موضع المضمر يفيد زيادة على ذلك ، وهى ذلك التمكين (١) » .

ومما لاشك فيه أن فى رأى البنانى دقة فى التحليل ، وبيان لمعنى التمكين الذى تضمنه هذا التعبير فى الخروج عن الظاهر .

وفى كتاب الأطول يعلق صاحبه على نكتة التعبير بالظاهر بدل المضمر فى هذه السورة الكريمة فيقول : «وعندى أن ترك الاضمار لأنه يتبادر الذهن منه إلى الشأن الذى ذكر آنفا ، ولايبعد أن يكون من نكات وضع غير اسم الإشارة ، موضع الضمير للتنبيه على بلادة السامع ، حيث لايفهم الضمير ، وادعاء الخفاء ، بحيث لايتضح إلا بتكرارالبيان الواضح (٢) .

الغـــرض الخامـــس

إزالـة اللبـس : لإيهام الضمير خلاف المراد

من الأغراض البلاغية التى تستفاد من إقامة الظاهر مقام المضمر إزالة الغموض والخفاء واللبس ، فيؤتى بالاسم ظاهرا لدفع هذا الإبهام ، وإزالة اللبس والغموض والخفاء ،ونسوق بعضا من النصوص القرآنية الكريمة التى يتمثل فيها هذا الغرض البلاغــى :

---

(١) تجربة البنانى على مختصر السعد ٣٠١/١ .

(٢) ينظر المرجع ٤٥٧/١ .

(١)

قوله تعالى : «قل اللهم مالك الملك تؤتى الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء وتعز من تشاء وتذل من تشاء بيدك الخير إنك على كل شيء قدير» (١) .

ففى هذه الآية وضع الظاهر (تؤتى الملك ، وتنزع الملك) ، بدل المضمر (تؤتيه، وتنزعه) ، وسر هذه المخالفة للظاهر هو مخافة اللبس ، لو عبر بالضمير ، لأنه يوهم أن الملك (الثانى) هو الملك (الأول) بعينه ، وهذا خطأ فى المعنى ، لأن الملك الأول ، غير كل من الثانى والثالث ، لأن الملك الأول حقيقى عام ومملوكيته حقيقية ، وذلك بخلاف الثانى والثالث، فهما مجازيان خاصان ، ونسبتهما لصاحبهما مجازية .

وقد يفرق بينهما بوجه آخر ، فيقال : إن المراد بالملك الأول الجميع، وبالآخرين بين البعض ،لأن الملك المؤتى ، والمنزوع لا يمكن أن يراد به جميع ملك الله . لأنه معرفة معادة ، فيراد بالثانى عين الأول ، ولأنه إذا لم يمكن إتيان الكل لم يمكن نزع الكل ، لأن الثانى مسبوق بالأول .

وعند التحقيق يظهر أن اللبس خاص بلفظ الملك الثانى بخلاف الثالث فلا لبس فيه ويرى فضيلة الأستاذ الدكتور محمد أبو موسى أن كلمة الملك كلمة عليها المدار فى بيان مطلق القدرة فلا بد أن تكون بلفظها، لأن الكناية فيها ليست كالتصريح ، وهذا ما حكاه الإمام عبد القاهر فى دلائل الإعجاز ص /٥٥٦ .

---

(١) آل عمران : ى/٢٦ .

(٢)

ومنه قوله تعالى : (١) «فبدأ بأوعيتهم قبل وعاء أخيه ثم استخرجها من وعاء أخيه ..» (٢) ففى هذه الآية وضع للظاهر موضع المضمر فى كل من (الوعاء و الأخ) الثانى فلو جرى الكلام على الظاهر فى الأول لقيل : (فاستخرجها منه) لتقدم ذكر (الوعاء) ، وعدل عن الظاهر مخافة أن يؤدى إلى إبهام عود الضمير على الأخ ، فيصير المعنى مفيداً لمباشرة الأخ لطلب خروج الوعاء ، والأمر ليس كذلك ، لما فى المباشرة من الأذى الذى ترفضه النفوس الأبية ، فأعيد الظاهر بلفظه دفعاً لهذا الإيهام .

ولم يضمر «الأخ» لأنه واقع مضافاً إليه ، ولم يذكر فيما تقدم مقصوداً بالنسبة الإخبارية ، فلما احتيج إلى إعادة ما، وأضيف إليه ، أظهر أيضاً (٣) .

(٣)

و منه قوله تعالى : «أقم الصلاة لدلوك الشمس إلى غسق الليل وقرآن الفجر إن قرآن الفجر كان مشهودا» (٤).

فعبر الله تعالى بالاسم الظاهر (إن قرآن الفجر) ، بدل الضمير وهو : (إنه كان مشهوداً) ، وذلك مخافة الوقوع فى لبس ، وهو توهم عود الضمير على (الفجر) باعتباره أقرب مذكور .

---

(١) ينظر : البرهان ٤٨٢/٢ ، والكشاف ٢٤٩/١ ، وروح المعانى ١١٢/٢ .

(٢) يوسف : ٧٦/ى .

(٣) ينظر : روح المعانى ٢٨/١٣ ، والكشاف ٤٩١/٢ ، والبرهان ٤٨٢/٢ ، والاتقان ٢١٦/٣ ، والشروح ٤٥٧/١ .

(٤) الاسراء : ٧٨/ى.

الغــرض الســادس

تربية المهابة ، وإدخال الروع فى ذهن السامع

من الأغراض البلاغية المستفادة من إقامة الظاهر مقام المضمر : إدخال الرعب والفزع ، وتربية المهابة فى قلب السامع ، فيؤتى بالإسم الظاهر لإفادة هذا . والقرآن الكريم ملىء بالآيات القرآنية الكريمة التى تمثل هذا الغرض ، وها هى بعض الآيات الدالة :

(١)

قوله تعالى : ﴿إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها ، وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل إن الله نعما يعظكم به إن الله كان سميعًا بصيرًا﴾ (١) .

فعبر بالاسم الظاهر وهو : (إن الله نعما ، وإن الله سميعًا) ، وكان مقتضى الظاهر أن يكون التعبير بالضمير لسبق الإسم الجليل فى الآية الكريمة ، فيقال : (إنه نعما ، وأنه سميع) .

وهذا العدول ، لسر بلاغى قد اقتضاه المقام ، وهو : إدخال الروع والمهابة فى قلوب المخاطبين ، سرعة للامتثال ، ورغبة فى التحذير والتخويف ، فالاسم الظاهر - فى هذا المقام - يفعل ما لا يفعله الضمير (٢) .

---

(١) النساء : ى/ ٥٨ .

(٢) الشروح ١/ ٤٥٢ ، المطول ص ١٢٧ ، ومختصر السعد ١/ ٣٠٢ .

(٢)

ومنه قوله تعالى : « لايتخذ المؤمنون الكافرين أولياء من دون المؤمنين ومن يفعل ذلك فليس من الله فى شىء إلا أن تتقوا منه تقاة ويحذركم الله نفسه والله رءوف بالعباد »(١) ففى هذه الآية وضع الظاهر وهو : (ويحذركم الله ، والله رءوف) ، موضع الضمير ، وهو : (ويحذركم نفسه ، وهو رءوف) ، وسر هذا العدول هو ادخال الروع والفزع ، وتربية المهابة فى قلوب السامعين ، حيث إن المقام مقام نهى وزجر للمسلمين فى عدم موالاة الكافرين ، ولهذا عبر بالظاهر لأنه الجدير بذلك ، لما فى لفظ الجلالة من الهيمنة على النفس ، والاستيلاء على المشاعر ، والامتثال لما يرشد إليه الكلام (٢) .

(٣)

ومما هو من هذا القبيل ، قوله تعالى : «يوم تجد كل نفس ماعملت من خير محضرا وماعملت من سوء تود لو أن بينها وبينه أمدا بعيدا ويحذركم الله نفسه والله رءوف بالعباد » (٣) .

فأقيم الظاهر وهو : (والله رءوف بالعباد) ، مقام الضمير : (وهو رءوف بالعباد) ، والسر البلاغى لهذا العدول : ادخال الروع والمهابة فى قلوب السامعين ، لأن المقام مقام تحذير وتخويف وتهديد وامتثال لما أمر الله تعالى (٤) وقد يكون العدول هنا لغرض بلاغى هو : استقلال الجملة ، وجريانها مجرى الأمثال .

---

(١) آل عمران : ى/ ٢٨ .

(٢) الشروح ٤٥٨/١، ٤٥٩ ، ومختصر السعد ٣٠١/١، والكشاف ٣٥١/١، وروح المعانى ١٢٩/٣ .

(٣) آل عمران : ى/ ٣٠ .

(٤) ينظر : الكشاف ٣٥١/١ ، والمختصر ٣٠٢/١ ، وروح المعانى ١٣٦/٣ .

الغرض السابع

قصد تقوية داعية الأمور

من الأغراض البلاغية التى تستفاد من إقامة الظاهر مقام الضمير، تقوية داعية الأمور ، حثًا على فعل الشىء ، وتقوية للدافع الذى يحفز الهمم ، ومن الشواهد الدالة :

(١)

قوله تعالى : «فبما رحمة من الله لنت لهم ولو كنت فظًا غليظ القلب لانفضوا من حولك فاعف عنهم واستغفر لهم وشاورهم فى الأمر فإذا عزمت فتوكل على الله إن الله يحب المتوكلين» (١) .

فى الآية خطاب من الله لرسوله يذكره فيه بجوانب التراحم والتعاطف ، ولين الجانب ، والعفو العام ، والتشاور فى الأمر . وعبر بالظاهر : ﴿فتوكل على الله - إن الله يحب المتكلين﴾ ، بدل الضمير : ﴿فتوكل عليه - إنه يحب المتوكلين ﴾ لغرض بلاغى قد اقتضاه المقام وهو تقوية داعية الأمور ، بمعنى أن التوكل طالما كان على العلى القدير ، صاحب الأمر والتدبير ، الذى يملك زمام الأمور كلها ، ويقول للشىء كن فيكون فيعتبر إسناد التوكل عليه تقوية لدواعى التوكل الحق ، والتفويض الدائم ، والتسليم الكامل ، والخضوع المطلق ، ولكل هذا أقيم الظاهر مقام المضمر لإفادة هذا الغرض (٢) .

---

(١) آل عمران : ى/١٥٩ .

(٢) المطول ص١٢٧ ، الشروح ٤٥٢/١ ، الاتفاق ٢١٦/٣ ، وروح المعانى ١٠٥/٤ ، والكشاف ٤٣١/١ .

(٢)

ومنه قوله تعالى : ﴿واتقوا الله ويعلمكم الله والله بكل شىء عليم﴾ (١) . ففى الآية الكريمة حث على كتابة الدين ، ومراعاة العدالة فى الكتابة، وتقيد ذلك بالشهود الذين يشهدون عليه ، صغيرا كان الدين ، أو كبيرا، مع التحذير من المخالفة فى ذلك .

ووضع الظاهر وهو : ﴿ويعلمكم الله - والله بكل شىء عليم﴾ ، موضع الضمير وهو ﴿ويعلمكم،وهو بكل شىء عليم﴾ ، وسر هذه المخالفة ، هو تقوية داعية الأمر بالتوكل عليه ، لما فى ذكر لفظ الجلالة من الرهبة ، والتخويف ، هذا الذى لا يكون فى الضمير .، ولهذا وضع الظاهر موضع المضمر (٢) .

هذا فضلا على أن العدول هنا قد يكون سببه استقلال الجملة ، وجريانها وحدها . وذلك كما أشار فضيلة الأستاذ الدكتور أبو موسى لو ذهب لفظ الجلالة ، لذهب المعنى ، لأن أجل النعم أن يعلمهم الله بجلاله ، واسمه الأعظم ووقوع الضمير مستتر لهذا الاسم الأعظم .

---

(١) البقرة : ى/٢٨٢

(٢) روح المعانى ٥٥/٣ ، والكشاف ٣٢٤/١ ، والبرهان ٤٨٢/٢ ، مختصر السعد ٣٠١/١ .

الغرض الثامن

التنبيه على عظم الأمر

قد يكون الغرض من إقامة الظاهر مقام المضمر : هو تنبيه المخاطب على أن ما جرى فيه الكلام أمر عظيم ، ذو منزلة سامية ، والاتعاظ والامتثال ، والبعد عن الصلف والتكبر ، والجحود والنكران ، ويتمثل هذا الغرض فيما يأتى من نصوص قرآنية كريمة .

(١)

قوله تعالى : ﴿أو لم يروا كيف يبدئ الله الخلق ثم يعيده إن ذلك على الله يسير . قل سيروا فى الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق ثم الله ينشئ النشأة الآخرة إن الله على كل شئ قدير﴾ (١).

فنجد أن الله سبحانه وتعالى كرر فى الآية الأولى ، والثانية لفظ الجلالة : ﴿الله﴾ ، وفى إعادته ظاهراً ، مخالفة للظاهر ، وعدول عنه ، لأنه فى مقام الإضمار ، وسر هذا العدول هو الاشارة إلى عظم الأمر فى قدرة الله البالغة .

بل نجد فى الآية دليلا آخر على إظهار العظمة والقدرة البالغة لله تعالى ، تتمثل فى ﴿الإظهار بعد الإضمار﴾ ، ويعد هذا أعظم بلاغة من ﴿الإظهار بعد الإظهار﴾ ، جاء هذا فى قوله : ﴿ثم الله ينشئ النشأة الآخرة﴾، بعد إضماره فى قوله : ﴿كيف بدأ الخلق﴾ ، وكان القياس : ﴿كيف بدأ الله الخلق ، ثم ينشئ النشأة الآخرة﴾ ، وذلك لمزيد الدلالة على عظم القدرة ، حيث إن الكلام كان عن الإعادة المرادة بالنشأة الآخرة ، وذلك بعد

---

(١) العنكبوت : ى ١٩/ ٢٠

إقرارهم بالخلق وأنه منه تعالى ، ثم عاد فاحتج عليهم بأن الاعادة إنشاء مثل الابداء ، فإن الله الذى لايعجزه شىء ، هو الذى لم يعجزه الابداء ، فهو الذى وجب ألا تعجزه الإعادة (١) .

(٢)

ومنه قوله تعالى : ﴿وأما الذين فسقوا فمأواهم النار كلما أرادوا أن يخرجوا منها أعيدوا فيها وقيل لهم ذوقوا عذاب النار الذى كنتم به تكذبون﴾ (٢) .

فأقيم الظاهر وهو (ذوقوا عذاب النار) ، مقام المضمر : (ذوقوا عذابها) ، لتقدم الظاهر فى قوله تعالى : (فمأهواهم النار) ، وسر هذا العدول هو : إظهار عظم الأمر ، مع التخويف والتحذير .

وقد خالف الإمام ابن الحاجب فى هذه الآية ، مشيرًا إلى أنها ليست من قبيل وضع الظاهر موضع المضمر ، محتجًا بأن لفظ (النار) الأولى سيق على سبيل الحكاية ، لما يقال لهم يوم القيامة عند إرادتهم الخروج من النار ، فلا يناسب ذلك وضع الضمير إذ ليس القول حينئذ مقدمًا عليه ذكر النار ، وخالفه الإمام الطيبى قائلا : بأن ذلك أيضًا داخل فى حيز الإخبار عن طريق العطف (٣) .

(٣)

ومنه قوله تعالى : ﴿يوم ترجف الأرض والجبال وكانت الجبال كثيبا مهيلا﴾ (٤) ،

---

(١) ينظر : مواهب الفتاح ضمن شروح التلخيص ٤٦٠/١ ، وبغية الإيضاح ١٤٨/١ ، والكشاف ٤٤٧/٣ ، وروح المعانى ١٤٦/٢٠ .

(٢) السجدة : ٢٠/ى .

(٣) ينظر : الكشاف ٥١٣/٣ وروح المعانى ١٣٢/٢١ .

(٤) المزمل : ١٤/ى .

ففى الآية تعبير بالظاهر فى لفظ (الجبال) الثانى ، فمقتضى الظاهر أن يكون مضمرًا ، لتقدم ذكره وسبقه فى الكلام وسر هذه المخالفة هو التنبيه على عظم خلق الجبال لأن المقام للتخويف ، والإنذار ، وفى التعبير بالظاهر سر بلاغى آخر غير ماتقدم ، وهو : (خوف اللبس) ، لأنه لو جىء به اسمًا مضمرًا ، لاحتمل عودة على الأرض ، دون الجبال ، وهو غير مراد ، فوضع الظاهر موضع المضمر دفعًا لهذا الإيهام (١) .

ومنه قوله تعالى : «هل أتى على الإنسان حين من الدهر لم يكن شيئًا مذكورًا . إنا خلقنا الإنسان من نطفة أمشاج نبتليه فجعلناه سميعًا بصيرًا» (٢) . فوضع الظاهر وهو : (إنا خلقنا الانسان) ، موضع الضمير وهو (إنا خلقناه) ، وذلك لتقدم لفظ الإنسان فى قوله : (هل أتى على الإنسان) والسر البلاغى فى هذا العدول هو التنبيه على عظم خلق الإنسان وأن هذا أمر لا يستطيعه غير الله (٣) .

الغـــرض التاســـع

التوصل إلى الوصف للانصاف والبعد عن التعصب

من الأغراض البلاغية التى تعود على الاسلوب القرآنى من وراء التعبير بالظاهر بدل الضمير ، هو : أن يتوصل إلى الصفة المعينة المقصودة بهذا الظاهر ، وذلك من باب الإنصاف ، وأحقاق الحق .

---

(١) روح المعانى ٢٩/١٣٥ ، الكشاف ٤/٦٤٠ .

(٢) الدهر : ١/٢٠١

(٣) ينظر : الكشاف ٤/ ٦٦٥ ، وروح المعانى ٢٩/١٨٩ .

ويتمثل هذا الغرض فى قوله تعالى : «قل يا أيها الناس إنى رسول الله إليكم جميعاً الذى له ملك السموات والأرض لا إله إلا هو يحيى ويميت فآمنوا بالله ورسوله النبى الأمى الذى يؤمن بالله وكلماته واتبعوه لعلكم تهتدون» (١) .

ففى هذه الآية وقع الظاهر وهو : (فآمنوا بالله ورسوله) ، موقع المضمر وهو : (فآمنوا بالله وبى) ، وذلك لتقدم ذكر لفظ (الرسول) فى الكلام ، والسر البلاغى الذى من أجله وقع الظاهر موقع المضمر : هو إرادة التوصل إلى الصفات الكريمة التى ذكرت عقب هذا الظاهر ، وهى قوله تعالى : (النبى الأمى الذى يؤمن بالله وكلماته) ، فهذه الصفات ذكرت على سبيل التقرير لأمر الرسول صلى الله عليه وسلم ، وذلك للدلالة على استئهاله واستحقاقه لهذه الرسالة التى اختاره الله تعالى لتبليغها ، ففى هذه الصفات تنبيه على اعتبار إيمان من لم يؤمن به صلى الله عليه وسلم ، حثا على اتباعه ، والتزاماً للإنصاف ، وبعداً عن التعصب الممقوت الذى يؤدى بهم إلى إنكار رسالته ، وهم يعرفونه كما يعرفون أبناءهم .

وعلى هذا فلا يخفى ما اشتملت عليه الآية من اظهار النصفة ، والبعد عن العصبية ، وهذا هو السر البلاغى فى العدول عن الظاهر ، وإيثار إقامة الظاهر مقام الضمير (٢) .

---

(١) الأعراف : ى ١٥٨ .

(٢) ينظر مواهب الفتاح ضمن شروح التلخيص ٤٦٠/١ ، وروح المعانى ٨٢/٩ ، والكشاف ١٦٦/٢ .

الغرض العاشر

الإشارة والتنبيه على علة الحكم

من الأغراض البلاغية التى تعود على الأساليب القرآنية من وضع الظاهر موضع المضمر ، التنبيه على أن هذا الظاهر هو السبب فى الحكم ، وأوثر الظاهر على المضمر ، لإفادة الظاهر ما لا يفيده المضمر ، هذا فضلا على أن التفات الذهن بسبب هذه المخالفة يؤدى إلى مريد الاهتمام ، وبالتالى فهو مدعاة لاستقرار المعانى ، وتمكنها فى النفس أتم تمكين .

ويتمثل هذا الغرض فيما يأتى من نصوص قرآنية كريمة :

(١)

قوله تعالى : «فبدل الذين ظلموا قولا غير الذى قيل لهم فأنزلنا على الذين ظلموا رجزاً من السماء بما كانوا يفسقون» (١) .

فقوله تعالى : «فأنزلنا على الذين ظلموا» من وضع الظاهر موضع الضمير ، لأن مقتضى الظاهر أن يقال : (فأنزلنا عليهم) ، لعود الضمير على الاسم الظاهر المتقدم .

والسر فى العدول عن الظاهر هو الإشارة إلى أن ظلمهم سبب لإنزال الرجز عليهم ، سواء أكان الرجز هو العذاب ، أم كثرة الموتى فيهم، ولم يفد الضمير هذه الإفادة، فلو قيل (فأنزلنا عليهم) ، لم يفد أن سبب الإنزال هو سابق ظلمهم، وهذا هو السر البلاغى الكامن فى هذا العدول (٢) .

---

(١) البقرة : ٥٩/١ .

(٢) الشروح ٤٥٢/١ ، وروح المعانى ٢٦٦/١ ، والكشاف ١٤٢/١ .

(٢)

ومنه قوله تعالى : ﴿من كان عدواً لله وملائكته ورسله وجبريل وميكال فإن الله عدو للكافرين﴾ (١) . فقوله : (فإن الله) وضع للظاهر موضع المضمر ، والتقدير : (فهو عدو) لسبق لفظ الجلالة الذى يعود عليه .

والسر البلاغى فى هذه المخالفة هو : أن الله سبحانه وتعالى يريد أن يبين أن كفرهم هو سبب عداوة الله لهم ولو عبر القرآن الكريم بالضمير لم يفد تلك الفائدة ، ففى الآية دلالة على أن الله سبحانه وتعالى عاداهم لكفرهم ، وأن عداوة الملائكة كفر ، وإذا كانت عداوة الأنبياء توصل للكفر ، فمابال الملائكة وهم أشرف المخلوقات ، والمعنى من عاداهم عاداه الله ، وعاقبه أشد العقاب (٢) .

ومنه قوله تعالى : ﴿وما أرسلنا من رسول إلا ليطاع بإذن الله ولو أنهم إذا ظلموا أنفسهم جاءوك فاستغفروا الله واستغفر لهم الرسول لوجدوا الله توابا رحيما﴾ (٣) .

ففى الآية وضع للظاهر وهو : (واستغفر لهم الرسول) موضع الضمير ، وهو : (واستغفرت لهم) ، تفخيماً لشأن رسول الله صلى الله عليه وسلم فضلا على ما به من تعظيم لاستغفاره (صلى الله عليه وسلم) ، وهذا هو السر البلاغى فى إقامة الظاهر مقام المضمر (٤) .

---

(١) البقرة : ئ / ٩٨ .

(٢) ينظر : مواهب الفتاح ضمن الشروح ٤٦٠/١ ، وروح المعانى ٣٣٤/١ ، الكشاف ١٦٨/١ ، ١٧٠ .

(٣) النساء : ئ /

(٤) الكشاف ٥٢٧/١ ، وروح المعانى ٧٠/٦ .

ومن إقامة المظهر مقام المضمر للغرض السابق ماجاء فى قوله تعالى : «ومن أظلم ممن أفترى على الله كذبا أو كذب بآياته إنه لا يفلح الظالمون»(١) .

وقوله تعالى : «والذين يمسكون بالكتاب وأقاموا الصلاة إنا لا نضيع أجر المصلحين» (٢) . وقوله تعالى : «إنا أعطيناك الكوثر فصل لربك وانحر ، إنا شانئك هو الأبتر»(٣) .

فكل من هذه الآيات أقيم فيها الظاهر مقام المضمر لسر بلاغى هو الإشارة والتنبيه على علة الحكم (٤) .

الغرض الحادى عشر

قصد العموم

من الأغراض البلاغية التى يؤتى بالظاهر مقام المضمر من أجلها إفادة العموم ، وبيان أن الأمر ليس على خصوصه وإنما هو عام يتناول جميع الجنس ، ويتمثل هذ الغرض فيما يأتى من نصوص قرآنية كريمة :

(١)

قوله تعالى : «وما أبرئ نفسى إن النفس لأمارة بالسوء» (٥) ، فأقيم الظاهر وهو {إن النفس} ، مقام الضمير بأن يقال: {إنها لأمارة}

---

(١) الأنعام : ى/ ٢١ .
(٢) الأعراف : ى/ ١٧٠ .
(٣) الكوثر : ى/ ٣،٢،١ .
(٤) ينظر : روح المعانى ٧٠/٦ ومواهب الفتاح ٤٦٠/١ ، والكشاف ٥٢٧/١ .
(٥) يوسف : ى/ ٥٣ .

لسبق ذكر النفس فى الكلام فيعود الضمير عليها ، وإنما خولف لسر بلاغى هو إفادة عموم النفى فى الاتهام وعدم التبرئه ، وليس الأمر مقصورًا على نفس سيدنا يوسف (عليه السلام) فحسب .

فالله سبحانه يريد أن يبين اتهام النفس يتناول جميع المخلوقات، فأعاد الاسم : (إن النفس) ظاهرًا لما فيه من (أل) التى تفيد استغراق الجنس (١) .

(٢)

ومنه قوله تعالى : «حتى إذا أتيا أهل قرية استطعما أهلها فأبوا أن يضيفوهما فوجدا فيها جدارًا يريد أن ينقض فأقامه قال لو شئت لا تخذت عليه أجرًا» (٢) .

فأقيم الظاهر وهو (استطعما أهلها) ، مقام المضمر وهو : (استطعماهم) ، وذلك لإفادة العموم ، وأن السؤال لم يقتصر على بعض أهلها ، وإنما عم جميع أهلها ، ولو عبر بالضمير لم يفد هذه الإفادة ، وفى الآية دلالة على أن الطلب كان للطعام فقط ، دون القصد إلى الإيواء، تشنيعًا على أهل هذه القرية ، وضاعف الله تعالى من أمر هنا التشنيع بقوله : «فأبوا أن يضيفوهما» ، مؤثرًا هذا التعبير ، دون (فأبوا أن يطعموهما) ، إشارة إلى أن الكريم قد يرد السائل المستعطم ولا يعاب ، ولكن إذا رد غريبًا استضافة ، فهذا هو العيب الذى لا يكون إلا من لئيم (٣) .

---

(١) ينظر : شروح التلخيص ٤٥٢/١ ، والمطول ص ١٢٧ .

(٢) الكهف : ٧٧/ى .

(٣) روح المعانى ٤/١٦ .

وفى مواهب الفتاح رأى لأبى يعقوب المغربى عن أبيه فى هذه ية الكريمة ، حيث إنها عنده ليست من قبيل وضع الظاهر موضع ضمر ، بل يرى أن الآية متمشية مع الظاهر فيقول : قوله : «استطعما لها» واجب متعين ، ولا يجوز مكانه (استطعماهم) ، لأن استطعما صفة قرية فى محل خفض ، جارية على غير من هى له ، كقولك : أتيت أهل رية مستطعم أهلها ، لو حذفت أهلها هنا وجعلت مكانه ضميراً لم يجز فكذلك هذا لايسوغ من جهة العربية شىء غير ذلك ، إذا جعلت استطعما صفة لقرية ، وجعله صفة لقرية سائغ عربى ، لا ترده الصناعة ، ولا المعنى (١) .

ولفضيلة الدكتور أبى موسى إشارة لطيفة فى سبب العدول هنا ، ومفادها : أن الفعل الذى يمثل أصلا من أصول المعنى يقع فى الكلام العالى على أصل المفعول لا على ضميره .

٣- ومنه قوله تعالى : «وإنا إذاأذقنا الإنسان منا رحمة فرح بها وإن تصبهم سيئة بما قدمت أيديهم فإن الإنسان كفور» (٢) . فقد وضع الظاهر وهو : (فإن الإنسان كفور) ، موضع المضمر ، فيقال : (فإنه كفور) ، وذلك لتقدم ذكر الإنسان فى الآية .

والسر البلاغى فى هذه المخالفة للظاهر إفادة العموم ، وبيان أن كفران النعم عام فى جميع أفراد الجنس ، كما فى قوله تعالى : «إن الإنسان لظلوم كفار» (٣) ، وقوله تعالى : «إن الإنسان لربه لكنود» (٤) فـ(أل) فى الإنسان للدلالة على العموم ، ولو عبر بالضمير بدل الظاهر لما أفاد هذا المعنى (٥) .

---

(١) ينظر : مواهب الفتاح ضمن شروح التلخيص ٤٦٠/١ . (٢) الشورى : ى/٤٨ .
(٣) ابراهيم : ى/٣٤ . (٤) العاديات : ى/٦ .
(٥) ينظر : البرهان ٤٨٢/٢ ، والكشاف ٢٣١/٤ ، وروح المعانى ٥٢/٢٥ .

الغرض الثاني عشر

قصد الخصوص

فكما يكون وضع الظاهر موضع المضمر لإفادة العموم - كما سبق - فيكون أيضاً لإفادة الخصوص على العكس مما سبق ، ويتمثل هذا الغرض في قول الحق عز وجل : ﴿وامرأة مؤمنة إن وهبت نفسها للنبي﴾(١) .

ففي هذه الاية الكريمة أقيم الظاهر وهو : (وهبت نفسها للنبي) ، مقام المضمر ، بأن يقال : (وهبت نفسها له) ، حيث صرح بلفظ النبي من قبل في قوله تعالى ﴿يا أيها النبي إنا أحللنا لك أزواجك﴾ .

ولكن خولف في الظاهر لإفادة الخصوص ، لأنه لو قيل : (لك) وعبر بالضمير على الأصل لأخذ منه صحة جواز ذلك لغيره (صلى الله عليه وسلم) ، ولأجل إفادة الخصوص ، وبيان أن هذا من خصوصيات رسول الله (صلى الله عليه وسلم) عبر بالاسم الظاهر ، وأقيم مقام الضمير ، ولذا جاء قوله تعالى : ﴿خالصة لك من دون المؤمنين﴾ خير شاهد على إرادة الخصوص (٢) .

---

(١) الأحزاب : ٥٠/ى .

(٢) ينظر : الكشاف ٤٤٧/٣ ، وروح المعاني ١٤٦/٢٠، وشروح التلخيص ٤٥٢/١ .

الغرض الثالث عشر

مراعاة التجنيس

من الأغراض البلاغية المستفادة من إقامة الظاهر مقام المضمر فى الآيات القرآنية (مراعاة الفاصلة) ، وهذا الغرض لا يكون - وحده - هو الأصل من وراء هذه المخالفة ، بغض النظر عن اعتبار آخر يستوجبه المعنى ، بل إن هذا الغرض يأتى تبعًا لاستيجاب المعانى أولا لهذه المخالفة ، ثم تأتى مراعاة الفواصل فى المرتبة الثانية ، ولا يمكن أن تكون غرضًا لذاتها .

ومماهو من هذا القبيل قوله تعالى : «قل أعوذ برب الناس . ملك الناس إله الناس» (١) . فوقع الظاهر وهو لفظ (الناس) فى الآية الثانية ، والثالثة ، اسمًا ظاهرًا ولو لم يخالف الظاهر ، لجاء اسمًا مضمرًا ، لوجود المرجع الذى يرجع إليه الضمير وهو لفظ (الناس) فى الآية الأولى .

ولكن خولف فى هذا الأصل ، ووضع الظاهر موضع المضمر مراعاة للفاصلة لأنها سينية ، ولو جيء بالضمير لاختلت الفاصلة ، وبقاء الفاصلة يعطى جرسًا خاصًا للألفاظ يزيد الأسلوب قوة ورصانة وهذا هو السر البلاغى الذى أقيم الظاهر من أجله مقام الاسم المضمر ، بالإضافة إلى أسرار أخرى تتعلق بالمعنى(٢)

---

(١) الناس : ى/٣٠٢٠١ .

(٢) ينظر : روح المعانى ٣٦٥/٣٠ ، والبرهان ٤٨٢/٢ ، والشروح و ٤٥٧/١ ، تجريد البنانى ضمن مختصر السعد ٣٠٢/١ .

الغرض الرابع عشر

الإشارة إلى أهمية الظاهر عن الضمير

من الأغراض البلاغية التى تستدعى إقامة الظاهر مقام الضمير التنبيه إلى أن الظاهر أهم من الأسم المضمر ، والإشارة إلى أنه يكون أجود لسبك الكلام ، وأن المبالغة فى المعانى إنما تتأتى بالظاهر دون الضمير ويتمثل هذا الغرض فى :

قوله تعالى : «واستشهدوا شهيدين من رجالكم فإن لم يكونا رجلين فرجل وامرأتان ممن ترضون من الشهداء أن تضل إحداهما فتذكر إحداهما الأخرى » (١) .

فهذه الآية تعد من قبيل إقامة الظاهر مقام المضمر ، فى حالة ما إذا كان فاعل تذكر (الأخرى) ، ومفعوله : (إحداهما) ، وقدم المفعول على الفاعل تنبيهاً على الإهتمام بتذكير الضال وعلى هذا فوضع الظاهر وهو (إحداهما) فى قوله : (فتذكر إحداهما) موضع المضمر ، وهو : (فتذكرها)، لتقدم الذكر فى الكلام .

والسر البلاغى فى هذا العدول هو : التنبيه على أهمية هذا الاسم عن الضمير ، وترجع هذه الأهمية إلى عدة عوامل منها :

(أ) تأكيد الإبهام ، والمبالغة فى الاحتراز عن توهم إختصاص الضلال - بأحدهما - بعينها ، والتذكير بالأخرى .

(ب) التنبيه على الإهتمام بهذا الظاهر ، وهذا هو سر العدول حيث أن تقديم المفعول وحده ، لا يكفى للتنبيه على الاهتمام المراد .

---

(١) البقرة : ىُ ٢٨٢ .

(جـ) تعادل الكلم ، وتوازن الألفاظ فى التركيب ، وهذا هو المعنى فى الترصيع البديعى ، بل هذا أبلغ من الترصيع لأن الترصيع البديعى توازن الألفاظ من حيث صيغها ، وهذا من ناحية تركيبها ، فكأنه ترصيع معنوى، وقلما يوجد إلا فى نادر الكلام .

ولكون العدول عن مقتضى الظاهر يشتمل على هذه الميزات ، فأوثر على الضمير ، حيث إن الضمير ، لا يفعل ما يفعله الإسم الظاهر فى هذا المقام(١)

الغرض الخامس عشر

الإشارة إلى الإستئناف فى الكلام

من الأغراض التى تستفاد من إقامة الظاهر مقام المضمر فى آيات القرآن الكريم التنبيه والإشارة إلى عدم دخول جملة الإسم الظاهر ، فى حكم الجملة الأولى . ويتمثل هذا الغرض فى قول الحق عز وجل : «أم يقولون افترى على الله كذباً فإن يشأ الله يختم على قلبك ويمحو الله الباطل ويحق الحق بكلماته إنه عليم بذات الصدور »(٢) .

فقوله تعالى (ويمحو) جملة مستأنفة ، وليست معطوفة على جواب الشرط ، وهو قوله : (يختم على قلبك) ، ويؤيد الاستئناف إعادة الإسم الجليل (الله) اسماً ظاهراً ، دون ضميره ، ورفع لفظ (يحق) دون جزمه ، وإنما امتنع عطفه على الجواب لأن المعلق على الشرط عدم قبل وجوده ، وهذا صحيح فى «يختم على قلبك» وليس بصحيح فى : «يمح الله الباطل» لأن محو الباطل ثابت ، ولذلك أعيد الظاهر .

---

(١) روح المعانى ٥٥/٢ ، الكشاف ٣٢٤/١ ، الشروح ٤٥٧/١ .

(٢) الشورى : ى/٢٤

وأما حذف الواو من من الخط فى : (يمح) ، فيرجع إلى اللفظ ،

وأما حذف الواو من الخط فى : (يمح) ، فيرجع إلى اللفظ ، كما فى قوله تعالى : «يدع الداعى» (١) ، وقوله عز وجل : «سندع الزبانية» (٢) ومن هنا استبان لنا السر فى إقامة الظاهر مقام المضمر ، وهو الإشارة إلى الاستئناف ، وعدم دخول الجملة فى حكم الأولى (٣) .

وبهذا نكون قد انتهينا من الأسرار البلاغية ، والأغراض البيانية التى تكون سببًا فى إقامة الظاهر مقام المضمر ، وعلمنا كيف كانت هذه الأغراض من صميم البلاغة العربية ، فقد استبان لنا من خلالها تلك الأسرار التى تكمن طى هذه الأساليب عندما يكشف عنها النقاب ليعرف السبب فى هذا العدول .

وبعد :

فتلك لمحة بلاغية ، مما زخر به كتاب الله تعالى ، ظهرت فى صورة إقامة الظاهر مقام المضمر ، قدمتها بين يدى القارىء كى تكون خطوة لإظهار بعض من الأسرار البلاغية التى يتلألأ نورها بين كل حرف من حروف القرآن الكريم ، وكل كلمة من كلماته ، وجملة من جمله ، فسبحان من هذا كلامه ، تنزيل من حكيم حميد .

وصلى الله على سيدنا محمد النبى الأمى وعلى آله وصحبه وسلم

---

(١) القمر : ى/٦ .

(٢) العلق : ى/١٨ .

(٣) ينظر : الكشاف ٢٢١/٤ ، وروح المعانى ٢٢ /٣٣ ، والشروح ٤٥٧/١ ومختصر السعد ٣٠٢/١ .

مراجع البحث

١- الإتقان فى علوم القرآن . للسيوطى . محمد أبو الفضل . الهيئة المصرية للكتاب سنة ١٩٧٤ م .

٢- أسرار البلاغة . للإمام عبد القاهر الجرجانى . مطبعة المنار .

٣- الأقصى القريب . للتنوخى . السعادة بمصر . ط/١ سنة ١٣٢٧ هـ .

٤- الإيضاح فى علوم البلاغة . للقزوينى . محمد محيى الدين ط السنة المحمدية بمصر .

٥- البحر المحيط . لابن حيان . مصر ١٣٢٨ هـ .

٦- البرهان فى علوم القرآن . للزركشى . محمد أبو الفضل الحلبى ط/٢ ١٩٧٢ م .

٧- تفسير الفخر الرازى . تحقيق محيى الدين عبد الحميد . المطبعة المصرية سنة ١٩٣٥ م .

٨- دلائل الإعجاز . لعبد القاهر الجرجانى . المنار . ط/٥ .

٩- روح المعانى . للألوسى . دار الفكر . بيروت لبنان سنة ١٩٨٧ م .

١٠- شروح التلخيص . لأصحاب الشروح . ط عيسى الحلبى سنة ١٩٣٧ م .

١١- فن البلاغة . د/عبد القادر حسين . نهضة مصر . ط/١ .

١٢- الكشاف . للزمخشرى . دار الكتاب العربى . بيروت سنة ١٩٨٦ م .

١٣- مختصر السعد . التفتازانى . محمد على صبيح . ط/١/١٣٤٧ هـ .

١٤- المطول . للسعد التفتازانى /١٣٣٠ هـ .

١٥- المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم . محمد فؤاد عبد الباقى . مطابع الشعب ١٣٧٨ هـ .

١٦- النكت فى إعجاز القرآن (ضمن ثلاث رسائل) . دار المعارف .